كِتَابُ جُمَل

مِن

أَنسَابِ الأَشرَافِ

صَنَّفَهُ

الإمام أحمد بن يحيى بن جابر

البلاذري

المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م

الجُزء الأوّل

السِّيرة النّبويّة

حقّقه وقدّم له

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار — الدكتور رياض زركلي

بإشراف

مكتب البحوث والدّراسات

في

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤١٧ هـ/١٩٩٦ م

الطبعة الاولى

بيروت لبنان

حارة حريك - شارع عبد النور - برقيا: فكسي - ص.ب: ١١/٧٠٦١

تلفون: ٨٣٨٣٠٥ - ٨٣٨٢٠٢ - ٨٣٨١٣٦ - فاكس: ٠٠٩٦١١٨٣٧٨٩٨

دولي: ٠٠٩٦١١٨٦٠٩٦٢ - دولي وفاكس: ٠٠١ - ٢١٢ - ٤٧٨٢٣٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

أطلق بعضهم ـ بحق ـ على القرن الحالي ، اسم عصر التاريخ ، لشدة اهتمام البشر ـ بهذا العلم ، فقد ظهرت أعداد كبيرة من المؤلفات ، مع عدد جيد من مذاهب تفسير أحداث الماضي ، كما جرى تحقيق واعادة تحقيق جل المصادر والوثائق ، ولم يقتصر الاهتمام بالتاريخ على المؤلفات العلمية ، بل تعدى ذلك إلى الروايات المتنوعة ، والسينما والمسرح والتلفزة ، وأقبل على العمل في ميدان التاريخ الهواة قبل ذوي الاختصاص ، وكانت هذه الحركة نشطة بشكل قيادي مؤثر في أوربا الغربية بشكل خاص .

وتأثر العرب والمسلمون بالتيارات الأوربية بحكم المثاقفة والتقليد والاملاء والترجمة وغير ذلك ، فقد تولت مدارس الاستشراق أعمال التأريخ للعرب والمسلمين وحققت كثيراً من المصادر الأساسية والوثائق ، وتنوعت انتماءات مدارس الاستشراق ومذاهبها ، وتظاهرت جميعاً بالأكاديمية العلمية والموضوعية ، كما تنكرت لأصالة الاسلام والعروبة وأرادت الحاق كل شيء في التاريخ والعقيدة مع كل انجاز باليهودية وبالتالي بالكاثوليكية وفروعها

الاصلاحية ، كما أن هذه المدارس كانت ملحقة بدوائر التبشير والاستعمار ، مطية حاقدة لها .

وتأثر الكتاب العرب ـ بعدما انبهر بعضهم ـ إلى حد بعيد بكتابات المستشرقين وما برحوا يتأثرون ويهللون ، وجرت بعض التعديلات على اطروحات الاستشراق بعد انحسار الاستعمار وقيام الحرب الباردة ، فقد استعرنا ـ بشكل متفاوت ـ اطروحات الماركسية ، وجعلناها تتفاعل مع التيارات القومية ، وكانت المحصلات أعداد كبيرة من المؤلفات المفيدة إلى حد ما ، وشرع العرب ـ وقد استقلوا ـ يخططون للتأريخ لأنفسهم ، وقامت عدة محاولات لهذا الغرض ما تزال متعثرة .

والآن وقد انتهى عصر الحرب الباردة وبدأ عصر المعلوماتية ، وانتقلنا من النزاع بين النظم الحاكمة إلى النزاع بين الحضارات ، بات على العرب ثم على المسلمين البحث عن مناهج ذاتية الأساس للتعامل مع تاريخهم وحضارتهم ، ليكون ذلك بمثابة «بنية تحتية» تتخذ قاعدة للعمل المستقبلي .

وللتاريخ العربي الاسلامي هوية متميزة ، ميزها الاسلام ، وصيغت وفق معطيات ومواريث خاصة ، فجذور الأمة العربية عميقة عمق التاريخ ، ومع أن هناك تراكمية هائلة إلا أن الاسلام شكل مرحلة حاسمة ما برحت قائمة ، لم يجبّ الاسلام التاريخ الذي كان قبله ، ولكن «الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أي دخل التاريخ مرحلة جديدة حاسمة ستتأوج باهتداء البشرية كلها .

هذا والمتتبع لأحداث قيام الاسلام ومراحل العصر النبوي ، يلاحظ أن الحركة الاسلامية توجهت نحو الجماهير وليس نحو النخبة :

﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك

ألا يزكى ﴾ [عبس : ١ - ٧] . وظلت جماهيرية طيلة أيام النبي ﷺ وأيام أبي بكر وكذلك أيام عمر ، لكن هذا تعطل أيام الخليفة عثمان حين تسلط النخبة من بني أمية على السلطة :

«إذا أراد الله بقوم سوءاً جعل أمرهم إلى مترفيهم» ، «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك» ، «الخلافة بالمدينة والملك بالشام» [كنز العمال ج ٦ ص ٨٧ - ٨٨] .

ومنذ أيام الخليفة عثمان أخذت الجماهير تبتعد عن السلطة ، وتقلل ثقتها بها ثم تعاديها ، ووصل الحال إلى القول : «إن دعاك الأمير أن تقرأ عليه ﴿قل هو الله أحد﴾ فلا تجبه» [تهذيب الكمال للمزي : ١٨٣/٥] .

وفي العصر الأموي استمرت حركة الفتوحات ، وباتت رقعة الدولة العربية شاسعة جداً ، وهنا علينا التمييز بين سعة السلطان وانتشار الاسلام بين شعوب البلدان المفتوحة وسواها ، والباحث في تاريخ العصر الأموي يجد أن السلطات الأموية لم تشجع في الغالب على الدخول في الاسلام لأسباب مالية ، وإذا لم تكن السلطة قد تولت نشر الاسلام فمن الذي تولى ذلك ؟

ويبين البحث في تاريخ ادارة الدولة الأموية والدول التي خلفتها ، أن المؤسسات الادارية قامت لخدمة السلطات ، ولم يكن هناك ادارة لخدمة الجماهير والدعوة إلى الاسلام ، هذا من جانب ، ويبين البحث بالمقابل حول بناء المساجد وقيام مؤسسات الأوقاف أو الحبوس والتعليم أن هذه المؤسسات كانت شعبية وأن العاملين فيها كانوا من بين أوساط الجماهير .

وتعمقت الهوة بين السلطة والشعب ، وباتت الصلاة فقط عبر جسور غير دائمة ، وطور الشعب مؤسساته الخاصة وحياته ، ومفيد هنا أن نطلق على الشعب ومؤسساته اسم «الدولة» ، وقامت الدولة بالتأريخ لرجالها فكان ابداع أدب التراجم ، وهو أدب لم تعرفه أمة غير الأمة العربية ، وتشعب

أدب التراجم وتطور من كتب الطبقات إلى تواريخ المدن ، وتحتوي كتب التراجم على مواد تتفوق بالأهمية على مواد ما نطلق عليه اسم كتب التاريخ ، واهتمت كتب التاريخ بالدرجة الأولى برجال السلطة ، ونادراً ما أهتمت برجال «الدولة» مع أن الذين صنفوا كتب التاريخ انتمى غالبيتهم بالأصل والنشأة إلى «الدولة» ، وتبقى اشكالية العلاقة بين «السلطة» و «الدولة» من المواضيع الجديرة بالبحث .

ونتج ـ فيما نتج ـ عن الفتوحات العربية وتأسيس الدولة الأموية أن تم من بعض الجوانب اعادة اعتبار للفئات «البرجوازية» التي هزمها الاسلام ، وإلى ظهور فئات اجتماعية واقتصادية جديدة «طبقة جديدة» وصلت إلى مراتب الشرف وشغلت أدواراً خطيرة ومؤثرة .

ومن الملاحظ أن المؤرخين الذين أرخوا «للسلطة» ركزوا جهودهم على الحدث السياسي ومفرزاته ، وغالباً ما تركز اهتمام كتاب التراجم على الجوانب الفكرية من دينية وأدبية ، وهكذا بقيت هناك ثغرة واسعة تعلقت بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية .

ولقد تفرد المؤرخ البلاذري في تغطية هذين الجانبين مع جوانب اضافية ، فتبوأ مكانة فريدة في الفكر العربي ، ولا شك أنه على رأس رواد التأريخ الاقتصادي والاجتماعي الانساني .

والبلاذري[1] :

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود . أبو بكر ، وقيل أبو الحسن ، وقيل أبو جعفر . ترجم له كثير من المؤرخين من أمثال : النديم في الفهرست

---

١ ـ البلاذري : بفتح الباء وضم الذال وكسر الراء نسبة إلى البلاذر وهو شجر من فصيلة البطميات ، وثمرة شبيه بنوى التمر ولبه مثل لب الجوز ، وقشرة متخلخل . قيل إنه يقوي الحفظ لكن الإكثار منه يؤدي إلى الجنون .

وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ، وابن العديم في تاريخ حلب ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، ومحمد بن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن حجر في لسان الميزان . ولم يترجم له الخطيب البغدادي مع أنه توفي بعده بأكثر من ثلاثة أرباع القرن .

ويعدّ البلاذري واحداً من أبرز مؤرخي القرن الثالث الهجري ، وهو بحق من أشهر مؤرخي الفتوحات .

وقد ولد على الأرجح في بغداد ، ولعل ذلك كان فيما بين سنة ١٧٠ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٦ ـ ٧٩٦ م ، ذلك أننا لا نعرف تاريخ ميلاده بشكل محدد ، ولا حتى تاريخ وفاته ، لكن يمكن افتراض هذا التاريخ على أساس ما ورد في ترجمته لدى ابن عساكر : أنه مدح المأمون بشعره ، وأن يصل البلاذري كشاعر إلى بلاط المأمون يفترض أنه كان في العقد الثالث من عمره على الأقل .

وعاش البلاذري مطلع شبابه في بغداد في جو تفتحت فيه أزاهير الأدب واينعت ثمار العلم ، ونشطت حركة الترجمة والنقل بعد أن فُتحت النوافذ على ثقافات الأمم الأخرى ، وكان من الطبيعي أن يتأثر هو بمثل هذا الجو الأدبي والعلمي ولا عجب وقد كان من أسرة عُرفت بممارستها للأدب ، فقد كان جده جابر بن داود يكتب للخصيب صاحب مصر .

وقد تنوعت مواهب البلاذري فكان كاتباً أديباً ، شاعراً ، راوية للأخبار ، نسّابة . وامتاز بذهن متوقد وبذاكرة تختزن المعلومات الغزيرة . وقد تتلمذ على عدد من مشاهير العلماء والمحدثين في بغداد من أمثال : عفان بن مسلم ، وأحمد بن ابراهيم الدورقي ، ومحمد بن الصبّاح الدولابي ، وعلي بن المديني ، وعبد الله بن صالح العجلي ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلي بن محمد المدائني ، وعثمان بن أبي شيبة ، ومصعب

الزبيري ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ، وعبدالأعلى بن حماد ، ومحمد بن حاتم السمين ، وعباس بن هشام الكلبي ، وعباس بن الوليد النرسي ، وشيبان بن فروخ ، وعبد الواحد بن غياث ، والحسين بن علي بن الأسود العجلي ، وعمرو بن ميمون الناقد ، وإسحاق بن إسرائيل ، وأبي الربيع الزهراني ، وخلف البزار ، وهوذة بن خليفة وعشرات غيرهم .

كما روى عنه عدد من شيوخ الحديث منهم : محمد بن خلف ، وأحمد بن عمار ، ويعقوب بن نعيم بن قرقارة الأرزني ، ووكيع القاضي ، ويحيى بن البريم ، وعبد الله بن أبي سعد ، ويحيى بن المنجم .

وبعد أن استوعب البلاذري ما لدى شيوخ العراق من علوم الحديث والأخبار والأنساب بدأ يبحث عن مصادر أخرى ليأخذ ما لم يجده لدى شيوخه في العراق ، أو ليقابله مع ما تلقاه ، وهكذا اختار بلاد الشام التي كانت تعدّ بالنسبة للحديث في مرتبة تاليةٍ لمرتبة العراق في تلك الحقبة من حيث أنها كانت تضم عدداً من أبرز شيوخ الحديث ممن تتلمذ بعضهم على عدد من التابعين ـ وخصوصاً فيما يتعلق بالسير وغزوات الرسول ﷺ ، وكانت تُشَدُّ نحوهم الرحال وتُضرب إليهم أكباد الإبل من سائر الآفاق .

ومع أن المصادر المتوفرة لا تتعرض للتاريخ الذي قام البلاذري فيه برحلته هذه إلا أنه يمكن الافتراض أن ذلك كان خلال الحقبة ما بين خلافة كل من المأمون والمتوكل [١٩٨ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٤٦ م] ، وكان أن يمم شطر دمشق وحمص وحلب ومنبج وأنطاكية والثغور حيث تتلمذ على يد أبرز علمائها من أمثال هشام بن عمار [ت ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م] وعمر بن سعيد في دمشق ، ومحمد بن مصفى الحمصي [ت ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م] في حمص ، ومحمد بن عبد الرحمن [ت ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م] وأحمد بن الوليد بن برد في انطاكية .

ويمكن من خلال معرفتنا لتاريخ وفاة هؤلاء الشيوخ الشاميين الاستنتاج أن هذه الرحلة تمت قبيل عام ٢٤٣ هـ على أبعد تقدير . ويبدو لنا هذا التفسير مقبولاً سيما وأن المصادر المتوفرة لا تتعرض إلى تاريخ حياة البلاذري في الحقبة الواقعة بين خلافتي المأمون والمتوكل مما يبعث على الإفتراض أنه كان آنذاك منكباً على تلقي العلم والأخذ عن شيوخ العراق ، ثم رحل بعدها إلى الشام والثغور لاستكمال علومه ، وعندما عاد من الشام إلى سامراء ، عاد وهو متسلح بفيض زاخر من مختلف العلوم التي أسهمت في إنضاج موهبته الشعرية بفضل ما كان يقرأه من أخبار العرب وأشعارهم في الشواهد الكثيرة في كتب التاريخ وفي الأخبار والأنساب ، وبدأ نجمه في المجتمع بالسطوع زمن المتوكل الذي قرَّبه وجعله من بين خالص ندمائه .

تجلت موهبة البلاذري الشعرية في وقت مبكر من شبابه وكانت بغداد آنذاك تعج بالعديد من فطاحل الشعراء ممن يتزاحمون على أبواب الخليفة وأبواب الرؤساء ، يمدحونهم وينالون عطاياهم من أمثال كلثوم بن عمرو العتابي ، وحبيب بن أوس الطائي ـ الذي مدح المأمون ولكنه لم يلق حظوة لديه ـ وغيرهما كثيرون .

وشرع البلاذري ـ كغيره من شعراء عصره ـ بالتكسب عن طريق الشعر ، فحاول التقرب من الخليفة المأمون [١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م] ومدحه بأبيات ، إلا أن تجربته الشعرية وسنه لم يكونا آنذاك قد نضجا بدرجة كافية بحيث يمكنه مزاحمة فحول الشعراء المحيطين بالخليفة آنذاك بدليل أن محاولته هذه لم تلق صدى لدى المأمون الذي كان بحق يتمتع بحس فلسفي وأدبي عميق ، فكان أن طرق باباً آخر من أبواب العلم والأدب له سوق رائجة في كل مكان ، هو باب الحديث والأنساب ورواية الأخبار ، فصرف سنوات كثيرة من حياته في التردد على العلماء يأخذ عنهم

اللغة والنحو والفقه والتفسير والحديث ، كما كان ينهل من جداول الشعر والأدب والرواية ، ثم ما لبث أن ظهر في حقبة اضمحل فيها مذهب المعتزلة الذين هيمنوا على شؤون العقيدة الإسلامية طوال ربع قرن تقريباً ، وأكرهوا القضاة على الأخذ بمذهبهم .

وكانت الخلافة قد آلت إلى المتوكل [٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٦١ م] فبادر في خطوة منه إلى التقرب إلى العامة ، بإلغاء الاعتزال وإعلاء شأن السنة وتقريب علمائها ، ومن الطبيعي أن يكون البلاذري واحداً من هؤلاء ، وأن ينضم إلى جماعة النخبة من الشعراء والأدباء والمحدثين الذين كانوا يحيطون بالخليفة المتوكل ، بل لقد أفلح في أن يكون واحداً من أصفيائه وندمائه وجلسائه ، وهي مرتبة لم يصل إليها إلا أكابر الشعراء وعلى رأسهم البحتري الشاعر الشامي الذي كان شاعر الخليفة الخاص به .

وهكذا انخرط البلاذري في قافلة الأدباء المتكسبين بشعرهم ، فنظم القصائد في مدح الخلفاء والوزراء وكبار قادة الدولة ، لكنه كان في الوقت نفسه هجَّاءً بارعاً لم يسلم حتى الوزراء والرؤوساء من لسانه ، ومنهم وَهْبُ بن سليمان بن وهُب الذي كان من جلساء الوزير عبيدالله بن خاقان ، وحدث أن حبق في حضرته فهجاه البلاذري بقصيدة قال فيها :

أيا ضرطة حُسِبَتْ رَعْدةً　　تَنَوَّقَ[1] في سَلِّهَا جهْدَهْ
تقدَّم وَهْبٌ بها سابقاً　　وصلَّى[2] أخو صاعدٍ بَعدَهْ
لقد هتك الله سِتريهما　　كذلك من يُطعم الفَهْدَهْ[3]

---

١ ـ تنوق : تأنّق .
٢ ـ المصلي : هو الذي يأتي تالياً في السباق .
٣ ـ الفهده : الاست .

وكان يهجو الذين لا يجيزونه أو يمتنعون عن تلبية مطاليبه مما جعلهم يتحاشون لسانه ويبادرون إلى شراء سكوته ، وقد دخل مرة إلى أحمد بن صالح بن شيرزاد ، فعرض عليه رقعة له فيها حاجة فتشاغل عنه . فقال له البلاذري :

تقدم وَهْبٌ سابقاً بضراطه   وصلَّى الفتى عبدون والناس حُضَّرُ
وإني أرى من بعد ذاك وقبلَه   بطوناً لناس آخرين تُقَرقِرُ

فقال له ابن شيرزاد : يا أبا الحسن ، بطون من ؟. فردّ عليه البلاذري في تهديد خفي : بطن من لم يقض حاجتي .

وفهم ابن شيرزاد المقصود بالتلميح ، فتناول الرقعة ووقَّع له فيها بما أراد البلاذري . كما هجا البلاذري صاعداً وزير المعتمد فقال :

أصاعِدُ قد ملأتَ الأرض جوراً   وقد سُسْتَ الأمور بغير لُبِّ
وساميتَ الرجال وأنت وغدٌ   لئيم الجدّ ذو عَيٍّ وعَيْبِ
أَضَلُّ عن المكارم من دليلٍ   وأكذب من سليمان بن وهْبِ
وقد خبِّرْتُ أنك حارثيٌّ   فردَّ مقالتي أولاد كعب

وهجا عافية بن شيث (وقيل شبيب) بقوله :

من رآه فقد رأى   عربياً مُدَلَّسَا
ليس يدري جليسُهُ   أَفَسَا أم تنفسا

هذا ولم يقتصر البلاذري في شعره على المديح والهجاء بل أورد له ابن العديم أبياتاً في الزهد ، ونقل ابن العديم عن البلاذري نفسه أن محموداً الوراق قال له يوماً : قُلْ من الشعر ما يبقى لك ذِكره ويزول عنك إثمه ، فقال :

استعدي يا نفس للموت واسعي   لنجاةٍ فالحازم المستعدّ

قد تبينتِ أنْ ليس للحيِّ خلـ ـــودٌ ولا من المـوت بُـدّ
إنمـا أنتِ مستعيـرةٌ مـاسـ ـــوف تَـرُدّينَ والعواري تُـرَدُّ
أنت تسهين والحوادث لا تسـ ـــهـو وتلهـين والمنـايـا تَجِـدُّ
أيُّ مُلْكٍ في الأرض أو أيّ حظٍ لامرىءٍ حظه من الموت لحدُ
لا تُرجّى البقاء في معدن المـ ـــوت ودارٍ حتوفها لـك وِرْدُ
كيف يهـوى امرؤٌ لـذاذة أيـ ـــام عليه الأنفاس فيها تُعَدُّ

ومن شعر البلاذري الذي رواه المرزباني في معجم الشعراء :

يا من روى أدباً ولم يعمل به فيكفَّ عـاديـة الهـوى بـأديبِ
حتى يكـون بما تعلم عـامـلاً من صالح فيكون غير مَعِيْبِ

وقد ظل البلاذري على صلات طيبة مع خلفاء المتوكل كالمستعين والمعتز ، ولا تتحدث المصادر المتوفرة عن علاقته بالمنتصر [٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢ م] . ولعل الأشهر القصيرة التي تولى هذا فيها الخلافة ، والاضطرابات التي رافقت أيام خلافته لم تتح للبلاذري أو لغيره من الأدباء الارتباط بعلاقات أدبية معه ، بيد أن صلته بالمستعين كانت قوية ، وكان مقرباً إليه ، كما كان على علاقة حسنة مع المعتز الذي اختاره مؤدباً لابنه عبد الله الذي نشأ فيما بعد شاعراً وأديباً .

وقد روى البلاذري حكاية عن علاقته الوطيدة بالمستعين ، فذكر أنه دخل إليه يوماً مع الشعراء ، فقال له المستعين قبل أن يشرع أحدهم بإنشاده :

من كان قال فيّ مثل قول البحتري في عمي المتوكل :

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعـه لسعى إليك المنبر

وإلا فلا ينشدني شيئاً ، فانصرف الشعراء جميعهم خائبين ، وانصرف البلاذري معهم إلى منزله حيث خلا إلى نفسه أياماً قليلة يُعمل فِكره في نظم

قصيدة فريدة في مدح المستعين ، ثم عاد إليه بعد ذلك وقال له : يا أمير المؤمنين ، قد قلت فيك أحسن مما قال البحتري في عمك . فقال : إن كان ذلك أسنيتُ جائزتك فهات . فأنشده قصيدة قال فيها :

ولو أن بُرْدَ المصطفى إذ حَوَيتَهُ يَظُنُّ لظنَّ البُرْدُ أنكَ صاحبُهْ
وقال وقد أُعطيتَه فَلبسْتَهُ نعم هذه أعطافه ومَنَاكِبُهْ

فأعجب المستعين بقصيدته وأمره بالانصراف ، وأن ينتظر رسوله ، ولم يلبث أن جاءه الرسول برقعة بخطه يقول فيها :

«قد أنفذت إليك سبعة آلاف دينار وأنا أعلم أنك ستُجفى بعدي وتُطرح ، وتجتدي فلا يُجدى عليك ، فاحفظ هذه الدنانير عندك ، فإذا بلغت بك الحال إلى هذا فانفق منها ولا تتعرض لأحد ليبقى ماء وجهك عليك . ولك عليّ أن لا تحتاج ما عشتُ إلى شيء من أمر دنياك كبير ولا صغير على حسب حكمك وشهرتك» .

وفعلاً فقد أجرى المستعين عليه الجرايات والأرزاق السنية ، وتتابعت عليه جوائزه فما احتاج إلى غيرها ، وقد آلى على نفسه ألا يُريق ماء وجهه أو يجتدي أحداً بعده .

ويبدو أن الأمور التي كان المستعين قد نبّه البلاذري إليها قد تحققت فيما بعد، ذلك أن حال البلاذري قد ساءت، ولم تعد قصائده ومدائحه تؤمن له أسباب عيشه ، ولعل فحشه في الهجاء كان أحد الأسباب في تناقص أصدقائه ، وإكسابه مزيداً من الأعداء ، وحاربه معارف الأمس من المسؤولين وحبسوا أرزاقه أو أخروها ، وتنكر له أصدقاؤه القدامى ومنهم أبو الصقر اسماعيل بن بلبل الذي كتب البلاذري له كتاباً لطيفاً سأله فيه أن يطلق له شيئاً من أرزاقه ، فوعده ولم يفعل ، فهجاه بقصيدة قال فيها :

تجانَف اسماعيل عني بودِّهِ ومَلَّ إخائي واللئيم ملول

وإن امرأً يغشى أبا الصقر راغباً
إليــه ومفـتــراً بــه لــذليــل
وقد علمتْ شيبان أنْ لستَ منهم
فما الذي إنْ أنكـروك تقول
ولو كانت الدعوى تُثبَّتُ بالرشا
لثبتٌ دعـواك الـذين تُنيـل
ولكنهم قـالوا مقـالاً فكـذبـوا
وجـاؤوا بأمـر مـا عليـه دليـل

وقصد يوماً أحد أصدقائه القدامى فوقف ببابه طويلاً دون أن يؤذن له ، فعاد إلى منزله حزيناً كاسف البال ، وبعث إلى ذلك الصديق بهذين البيتين :

لمـا رأيـتـك زاهـيـاً
ورأيتُني أُجفى ببـابـك
عَـدَّيـتُ رأس مـطـيتي
وحجبتُ نفسي عن حجابك

وتوجه إلى صديقه عبيد الله بن خاقان ـ الذي كان مقرباً له زمن المتوكل ، والذي لم يلجأ إليه قبل هذه المرة لاستغنائه عنه ـ لكن هذا حجبه ولم يأذن له ، فأنشد وهو على بابه :

قالوا اصطبارك للحجاب مذلة
عار عليك مدى الزمان وعاب
فـأجبتهم ولكل قـول صـادق
أو كاذب عند المقال جواب
إني لأغتفـر الحجـاب لمـاجدٍ
أمست لـه منن علـيّ رغـاب
قد يرفع المرء اللئيم حجابهُ
ضِعَةً ودون العُرْفِ منه حجاب

ويبدو أم الأمور بلغت بالبلاذري مبلغاً اضطره إلى بذل ماء وجهه ، وهو الذي ألزم نفسه بصونها عن الامتهان والاجتداء وخصوصاً زمن المعتمد ، حيث اضطرته الحاجة إلى اللجوء ثانية إلى صديقه القديم عبيد الله ابن خاقان، واغتنم مناسبة جلوس الوزير للمظالم فمثل أمامه شاكياً إليه تأخر رزقه وإلحاف الدائنين وقال له : إن عيباً على الوزير ـ أعزه الله ـ حاجة مثلي في أيامه ـ فغض الوزير طرفه عنه ووقّع له ببعض ما أراد ، لكنه سأله بشيء من التأنيب : أين حياؤك المانع من الشكوى على الاستبطاء ؟.

فرد عليه البلاذري بمرارة : غَرْسُ البلوى يُثمر ثَمَر الشكوى . ثم انصرف وكتب إليه :

لحاني الوزير المرتضى في شكايتي زماناً أُحِلَّتْ للجَدُوب محارمه
وقال لقد جاهرتني بملامة ومن لي بدهر كنت فيه أكاتمه
فقلت حياء المرء ذو الدين والتقى يَقِلُّ إذا قَلَّتْ لديه دراهمه

كان البلاذري إلى جانب ضلوعه بالعربية والشعر وعدد من العلوم الأخرى متمكناً من الفارسية ، وقد نقل عنها إلى العربية شعراً كتاب «عهد أزدشير» كما خلف عدداً من المؤلفات ، أهمها :

كتاب البلدان الصغير ، وكتاب البلدان الكبير الذي شرع في تأليفه لكنه لم يتمه ، ولعله اختصره في الكتاب المتقدم الذي عرف فيما بعد باسم /فتوح البلدان/ ، وكتاب الأخبار والأنساب .

وكان كتاب «البلدان» قد نشر لأول مرة في عام ١٨٨٦ م من قبل المستشرق دي غويه ثم نشر في العالم العربي لأول مرة في القاهرة في عام ١٩٣٢ م من قبل السيد رضوان محمد رضوان دون تحقيق أو حواشٍ أو فهارس فنية ، ودون ضبط للنص ، كما أعيد طبعه مراراً بالشكل نفسه فيما بعد في كل من القاهرة ثم بيروت ، وقمت مؤخراً باعادة تحقيقه ونشرته في بيروت عام ١٩٩٢ ضمن مجموع ضم معه : السيرة النبوية ، ومغازي ابن حبيش ، والفتوح لابن الأعثم وفتح الهند للكوفي .

وقد استهل البلاذريَ كتابه «البلدان» بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، ثم تحدث عن غزوات الرسول ﷺ وفتح مكة والطائف ، ثم انتقل إلى الحديث عن حروب الردة زمن أبي بكر والفتوحات التي قام بها المسلمون في الشام والجزيرة وأرمينية ومصر وكذلك في العراق وفارس ، متبعاً في كتابه أسلوب الأسانيد .

واختتم كتابه بفصول عن أحكام الخراج والدواوين واستعمال الخاتم والسكة والنقود . والكتاب في حد ذاته عظيم الأهمية من حيث أنه لا يكتفي بالتحدث عن الفتوح بل إنه يتناول أيضاً بحوثاً في قضايا العمران وفي النظم الاجتماعية ، وكذلك أموراً أخرى يندر أن ترد في كتاب من هذا النوع مثل ما أورده عن الخراج والسكة والخط العربي والقراطيس والنقود والخاتم وغير ذلك ، علاوة على أنه تطرق إلى دقائق قد لا تتوفر في مصدر آخر مثل حديثه عن قيام معاوية بن أبي سفيان بنقل من الفرس من بعلبك وحمص وانطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وإلى أماكن أخرى الأمر الذي يدل على تغيير في الخارطة الديموغرافية زمن معاوية لأسباب عسكرية .

كما تتحدث عن صناعة السفن في الدولة الأموية وأنها كانت في السواحل الشامية وكذلك في مصر .

كذلك تحدث عن قضايا قد لا تكون المصادر تعرضت إليها مثل حديثه عن سيف عمرو بن معدي كرب المسمىٰ الصمصامة وكان قد وهبه إلى خالد بن سعيد ، وعندما استشهد خالد في مرج الصُفَّر ، أخذ معاوية السيف لنفسه فنازعه فيه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، فقضىٰ له به الخليفة عثمان .

وهناك كذلك أخبار كثيرة عن المدن القديمة ، وعن أحياء كانت موجودة ثم اندثرت ولم تعد تُعرف في الوقت الحاضر ، وأخبار هامة عن تطور كل من البصرة والكوفة ، ومن أهم ما انفرد به ما تعلق بإنتشار العرب في أطراف دار الاسلام وتأسيس بعضهم لدول ذات عطاءات حضارية .

وحين تحدث النديم عن مصنفات البلاذري ذكر له «كتاب الأخبار والأنساب» أما ابن العديم فقال : «أنساب الأشراف ، وهو كتاب ممتع ، كثير الفائدة والنفع ، ومات ولم يتمه» وكتاب الأنساب هذا سماه الذهبي «التاريخ

الكبير» ويرجح أن البلاذري نفسه سماه «جمل من أنساب الأشراف» وهو العنوان الذي التزمنا للكتاب الذي نقدم له اليوم .

أرخ البلاذري في هذا الكتاب للجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، واهتم بها أكثر من الجوانب السياسية والعسكرية ، ومفهوم الأشراف لديه هو المفهوم العربي القديم ، لكن خلال تأريخه لكل بيت قديم ألحق به أخبار مواليه الذي وصلوا إلى مراتب الثروة والشرف ، مثل آل أبي بكرة .

بدأ البلاذري كتابه بالحديث عن أنساب القبائل العدنانية ، ويبدو أنه كان ينوي بعد استيفاء أنساب هذه القبائل الحديث عن القبائل القحطانية ، لكن الأجل حال بينه وبين ذلك .

وبما أن النبي ﷺ هو سيد بني عدنان ـ وسواهم ـ من البشر فقد جاء الجزء الأول من الكتاب مصنفاً بالسيرة النبوية مع مقدماتها حول عرب ما قبل الإسلام مع شيء من أخبار مكة المكرمة .

وبعدما فرغ من السيرة النبوية تابع التأريخ لأشراف بني هاشم بن عبد مناف ، أي الإمام علي عليه السلام وآله وآل أبي طالب ، ثم انتقل للتأريخ لآل العباس ، وبعدما فرغ من التأريخ لبني هاشم شرع بالتأريخ لبني عبد شمس بن عبد مناف ، أي للدولة الأموية ، واستحوذ التأريخ لبني عبد شمس الجزء الأكبر من كتاب البلاذري ، وبات بذلك أفضل مصدر متوفر للتأريخ للدولة الأموية فيه من المواد الاخبارية ما لا نجده في مصدر آخر .

وأرخ البلاذري إثر هذا لبقية بطون قريش ثم للقبائل الأقرب فالأقرب من قريش وانتهى حديثه بالتأريخ لثقيف .

واضطر البلاذري أثناء عرضه لأخباره إلى التكرار ، وازدادت وتيرة التكرار في آخر الكتاب إلى حد يعطي الإنطباع أنه لم يتح له مراجعة هذه المواد مثلما فعل أول الكتاب ووسطه .

واستخدم البلاذري طريقة الأسانيد على قاعدة المحدثين ، لكنه قام كما فعل بعض معاصريه بدمج بعض الأسانيد والروايات بشكل متوازن .

ومادة البلاذري الاخبارية مشرقية : حجازية ـ عراقية ـ شامية ، فيها عن مصر إشارات عابرة ، وليس لديه ما يقوله عن بلدان المغرب والأندلس .

وكان ابن الكلبي بين أهم مصادر البلاذري ، لكن مواد البلاذري أوسع وأكمل من المواد الموجودة لدى ابن الكلبي في جمهرته ولدى غيره من النسابين ، وعلى هذا قدم لنا البلاذري أخباراً عن أيام العرب قبل الاسلام هامة جداً ، ومع هذه الأخبار وغيرها كميات كبيرة من الشعر حتى لشعراء مشهورين مثل الفرزدق غير موجودة في ديوانه المنشور .

وصحيح أن البلاذري شهر بالهجاء ، وقد يوحي هذا بخلفيات اجتماعية ناقمة ، لكن يلاحظ أن حسه الاجتماعي النامي انعكس موضوعياً خلال مواد أنساب الأشراف ، وحافظ البلاذري على حياده فلم يستخدم اللعن أو الشتم ولم تظهر عليه آثار الانحياز ، ويشير هذا أنه امتلك طباع المؤرخ الحيادي ، وفعلاً لقد امتلك البلاذري طباع المؤرخ ، وتميز عن غيره بإبداء آرائه في بعض الراويات وترجيح رواية أخرى .

ولقد عمّر البلاذري كما يبدو طويلاً ، فقد روي أنه توفي في أيام المعتمد [٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م] وقيل إنه عُمّر حتى أيام المعتضد [٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م] ومن هنا قيل إنه «وسوس في أواخر أيامه فشد بالمارستان ومات فيه» وقيل إن سبب وسوسته شربه لمنقوع ثمر البلاذر ، وكان يستخدم لتقوية الذاكرة ، لذلك عرف بالبلاذري ، ورجح ياقوت أن يكون جده هو الذي وسوس بسبب تناوله لثمر البلاذر ، وأنه هو الذي عرف بالبلاذري ، واستند بترجيحه على روايات نقلها عن ابن عبدوس

الجهشياري ، صاحب كتاب الوزراء والكتاب ، الذي ذكر أن «جابر بن داود البلاذري كان يكتب للخصيب بمصر» وطالما أن كلمة «البلاذري» كانت ملصقة بالجدّ ـ في وقت يحتمل فيه أن أحمد بن يحيى ، حفيده، لم يكن قد ولد بعد ـ من غير المعقول تصور انتقال الكنية من الحفيد إلى الجد ، لكن هذا لا ينفي إصابة البلاذري بالوسوسة في أخر أيامه ، فلعل ذلك مما عاناه من ضيق ذات اليد ، ومن الوحدة وجفوة الأصدقاء ، وانحراف الأصحاب ، العوامل التي كان لها أثر في إصابته بهذا العارض ، وإنه لمن المحزن أن لا يلقى هذا المؤرخ العبقري والشاعر الأديب التقدير الذي استحقه في شيخوخته ، وأن تؤول خاتمته إلى الشدّ بالمارستان والموت فيه بشكل محزن .

وكان لهذا آثاره السلبية على انتشار الكتاب وتوفر نسخه ، هذا في الماضي ، أما في التاريخ الحديث فقد حظي الكتاب باهتمام كبير وعناية شديدة ، فكانت أول محاولة لنشره في ١٨٨٤ ، حيث نشرت قطعة منه تحت عنوان «الجزء الحادي عشر» في توبنغن في ألمانيا ، ثم تولت الجامعة العبرية بالقدس نشر المجدلين الرابع والخامس [١٩٣٨ ـ ١٩٧٠] ، وفي هذه الأثناء نشرت دار المعارف بالقاهرة [١٩٥٩] الجزء الأول من الكتاب ، ثم نشر الأستاذ محمد باقر المحمودي الجزء الثانـي من الكتاب في بيروت [١٩٧٣] ، ووضع المعهد الألماني ببيروت خطة لنشر الكتاب كاملاً ، ووزع أجزاءه على عدد من العلماء المختصين ، وكانت المحصلة أن أعاد الدكتور إحسان عباس ما نشرته الجامعة العبرية مع تدقيق رفيع وبعض الزيادات ، كما قام الدكتور عبد العزيز الدوري بنشر جزء لطيف يتعلق ببني العباس [بيروت ١٩٧٨] وقام الدكتور إحسان العمد بجمع أخبار الشيخين : أبو بكر وعمر ، ونشر ذلك في مجلد في الكويت [١٩٨٩] .

وفي وقفة مع هذه الأجزاء المنشورة لاحظت أن التصحيفات في طبعة ألمانيا كثيرة جداً ، وهذه الطبعة حجرية نادرة الوجود ، وقفت على نسخة منها في مكتبة كلية الآداب في جامعة القاهرة ، وصورها لي مشكوراً زميلي وصديقي الاستاذ حسنين محمد ربيع ، نائب رئيس جامعة القاهرة ، أما طبعة القاهرة فالتصحيفات أقل من الطبعة الألمانية ، لكنها انتشرت على كل صفحة ، وفيما يتعلق بالجزء الثاني فقد طبع مشوهاً عن سابق اصرار وعمد ، حيث سمح المحقق لنفسه بالتلاعب بالنص وتوزيع الرضى واللعنات هنا وهناك على الذين ورد ذكرهم في النص ، وهناك أيضاً تصحيفات كثيرة في الجزئين اللذين طبعا في القدس ، أما الأجزاء التي طبعها : الدكتور إحسان عباس والدكتور الدوري ، والدكتور العمد ، فقد جاءت بدرجة مثالية من الضبط والعناية .

وكانت الحاجة ملحة دوماً لنشر الكتاب بأكمله ، وعقدت العزم على هذا منذ عدة سنوات ، وفي ندوة تلفزيونية في دمشق عن البلاذري أعلنت عن نيتي بإخراج الكتاب كاملاً ، وبعدما ناقش السيد رياض زركلي اطروحته لنيل الدكتوراه ، طلبت منه العمل معي في سبيل تحقيق الكتاب واخراجه دفعة واحدة ، فوافق بحرارة .

والسيد الزركلي درس معي في مرحلتي الماجستير والدكتوراه والتمست فيه دوماً الجدية والصبر والدأب ، مع قدرة جيدة على ضبط الشعر ، وتعاونا معاً بشكل منسق متكامل حتى تم لنا تحقيق النص بعد عمل شاق استغرق عدة سنوات ، ونقوم الآن بإعداد الفهارس الفنية ، ويحتاج ذلك إلى عدة أشهر .

واعتمدنا بالتحقيق على :

أ ـ نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم /٧٩/ ، وهي أفضل نسخة كاملة متوفرة للكتاب صنعت في دمشق «في سنة تسع وخمسين وستمائة» من قبل «أحمد بن محمد بن عبدالله بن أبي بكر الموصلي ثم الدمشقي الشافعي بسكنه برباط الشميشاطي بدمشق» ووقعت النسخة التي اتخذها الموصلي أصلاً لنسخته في اثنين وأربعين جزئاً ، وهي منسوخة في مصر سنة ٣٩٥ ، وعارض نسخته على نسختين أحداهن على واحد من مجلداتها قراءة تاريخها «سنة تسعين وثلاثمائة» واستدرك من الأخرى ـ وهي أيضاً قديمة ـ ما كان في الأولى من «اضطراب وتأخير واسقاط ومحو» وهكذا باتت النسخة الجديدة مرجحة على الأصل ، وهي بالفعل نسخة ممتازة جاءت في /٩٣٤/ صفحة كتبت بقلم دقيق ليس من السهل قراءته خاصة وأن الحبر عدا مع الرطوبة على كثير من الأماكن فطمسها بدرجات متفاوتة .

ب ـ ومع هذه النسخة هناك نسخة أخرى كاملة موجودة في مكتبة السليمانية في استانبول برقم ٥٩٨ ، وهذه النسخة نسخت عن النسخة الدمشقية من قبل «أحمد بن حسن العشماوي » سنة «ثلاث وعشرين ومائة وألف» وهذه النسخة تعاني من التصحيف وبعض السقط ، لكنها رديف مفيد جداً .

جـ ـ وعلمت بوجود نسختين من الكتاب احداهن ناقصة ربعها في المكتبة الملكية بالرباط حصلت على شريط فيه جزئين من واحدة وجزء من أخرى ، وأفدت فقط من الجزء الثالث من النسخة رقم /٦٩١٤/ ، وهو مكتوب بخط مغربي جيد ،

لقد بذلت مع الدكتور زركلي كل جهد ممكن لضبط نص الكتاب ، ولم يكن ذلك بالسهل أبداً ، ورجعت إلى كل ما يعين العمل من أصول تاريخية وكتب أنساب وتراجم ودواوين شعر ومعاجم ، كما راجعنا تجارب الطباعة

عدة مرات ، واستهدفنا أثناء تقسيم الكتاب إلى أجزاء أن يتراوح الجزء ما بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ صفحة على الأكثر ، وأقللت من الحواشي إلا ما هو ضروري لا يمكن الإستغناء عنه .

ومما لاشك فيه أن توفر كتاب البلاذري للمهتمين بالتاريخ الاسلامي سيكون موضع ترحيب ، وسيحتل هذا الكتب مكاناً في المكتبة العربية لا يمكن لكتاب آخر أن ينازعه عليه .

والله الموفق إلى السداد ، وله تعالى الحمد والثناء والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه .

دمشق ٢٣ جمادى الآخر ١٤١٧ هـ
٥ تشرين الأول ١٩٩٦ م
سهيل زكار

وَلَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ قَالَ عَبْدُ المَلِكِ مَتَي تَلِدُ النِّسَاءُ مِثْلَ مُصْعَبٍ لَقَدْ حَرَصْنَا عَلَي ٱسْتِبْقَائِهِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ أَبَي ذٰلِكَ ❊ وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ الرِّقَاعِ ٱلْعَامِلِيُّ وَيُقَالُ ٱلْبَعِيثُ ٱلْيَشْكُرِيُّ

الطويل

وَنَحْنُ قَتَلْنَا ٱبْنَ ٱلْحَوَارِيِّ مُصْعَبًا
أَخَا أَسَدٍ وَٱلْمُذْحِجِيَّ ٱلْيَمَانِيَا
وَمَرَّتْ عُقَابُ ٱلْمَوْتِ قَصْدًا بِمُسْلِمٍ
فَأَهْوَتْ لَهُ ظُفْرًا فَأَصْبَحَ ثَاوِيَا

يَعْنِي مُسْلِمَ بْنَ عَمْرٍو البَاهِلِيَّ ❊ وَلِعَدِيِّ بْنِ الرِّقَاعِ قَصِيدَتُهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا

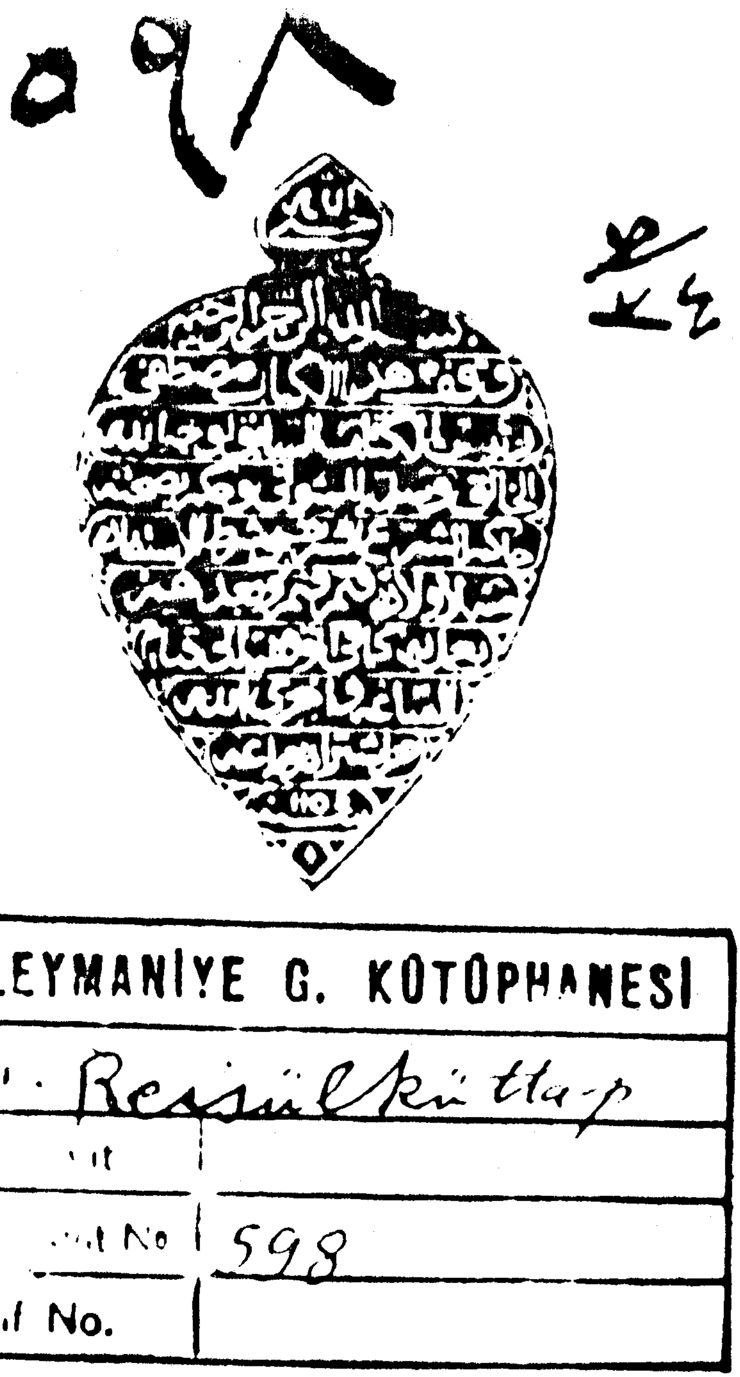
المتقارب

لَعَمْرِي لَقَدْ أَصْحَرَتْ خَيْلُنَا
بِأَكْنَافِ دِجْلَةَ لِلْمُصْعَبِ
إِذَا شِئْتَ نَازَلْتُ مُسْتَقْدِمًا
إِلَى ٱلْمَوْتِ كَالْجَمَلِ ٱلْأَجْرَبِ
فَمَنْ يَكُ مِنَّا يَكُنْ آمِنًا
وَمَنْ يَكُ مِنْ غَيْرِنَا يَهْرُبِ

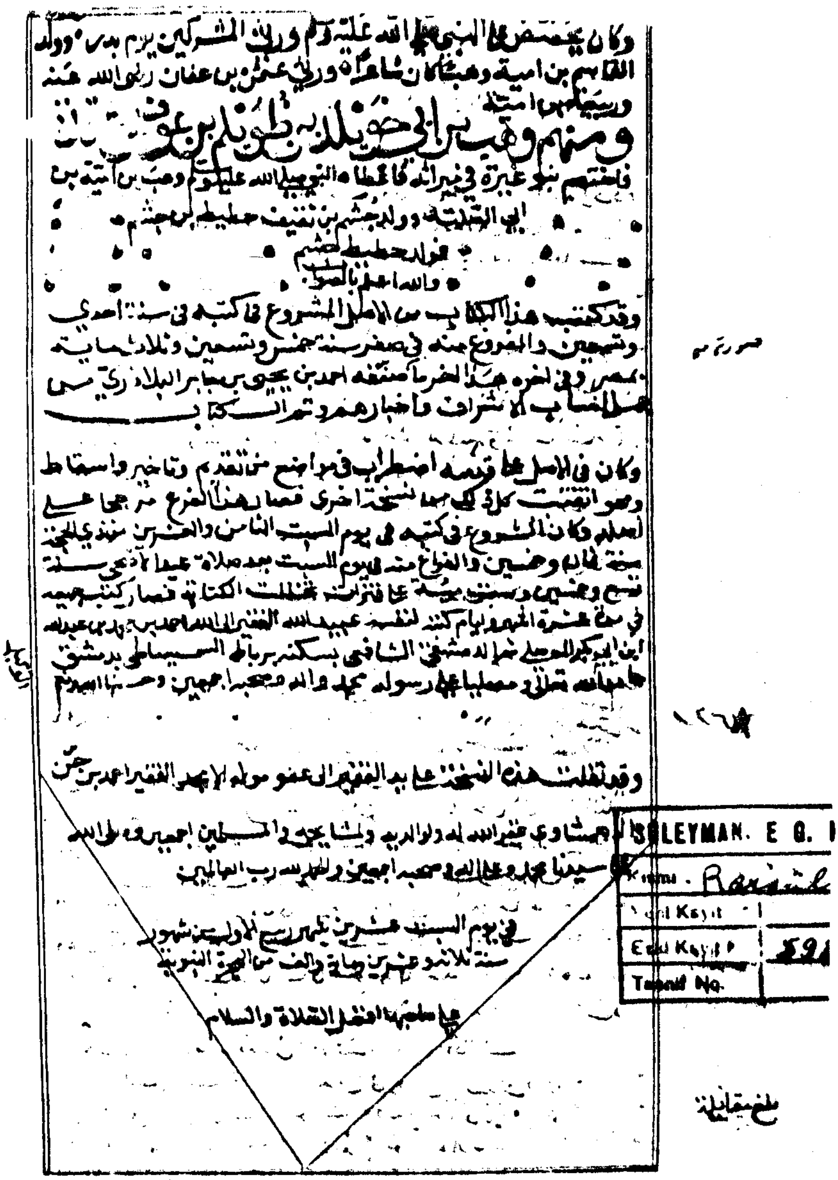
وَقَالَ ٱبْنُ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ

الطويل

أول صفحة من طبعة توبنغن في ألمانيا ١٨٨٤ م



الوجه الأول من نسخة استانبول



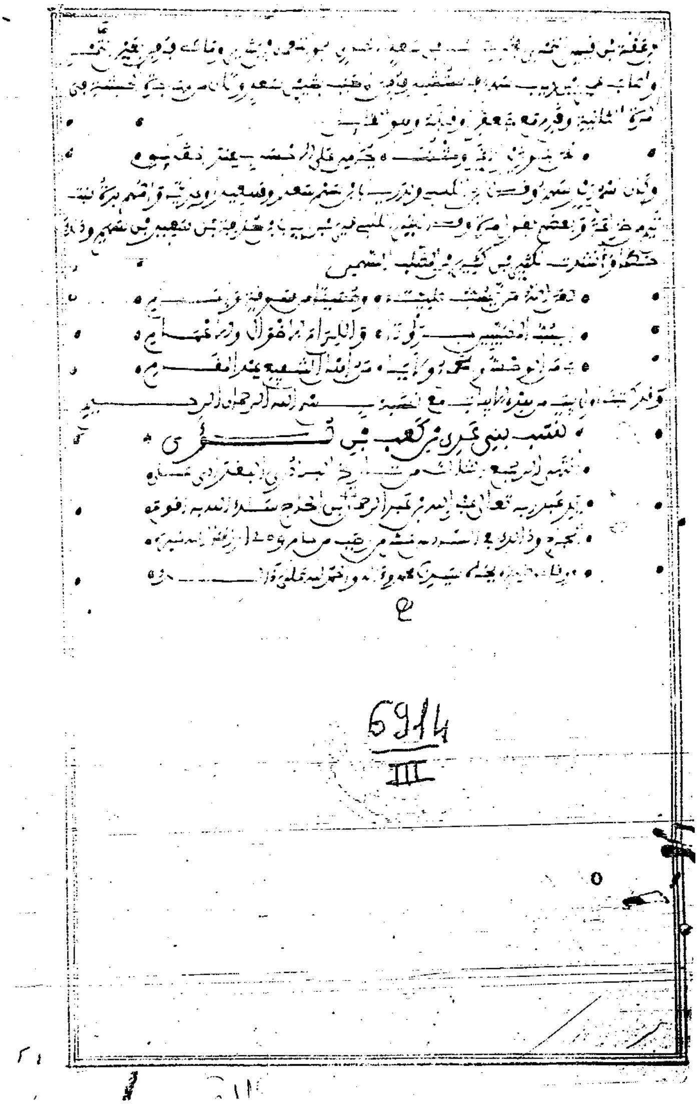
الوجه الأخير من نسخة استانبول

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف لوط بن يحيى وعن عوانة أن بشر بن مروان لما هلك
بالبصرة وهو على الكوفة والبصرة واستخلف خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص على
البصرة هلك سنة أربع وسبعين ثم ولّى عبد الملك الحجاج بن يوسف العراق كله غير خراسان وسجستان
فأنه كان عليهما أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد وأمر له عبد الملك سنتين بعد قدوم الحجاج من الحجاز وأنا عبد الله
أن يقر خالدا على عمله ... فلم ... وقال ... وعجز عن العدو ... من أهل
... الحجاج من الحجاز ركبان ... فأقبل حتى دخل الكوفة متلثما فصعد إلى المنبر
فجلس ثم جلس ساعة لا يتكلم فقال عمير بن ضابئ البرجمي ... مالك ... الله لا يتكلم
ما ... والله ... ثم ... ليحصبه فلم
يفعل حتى قام الحجاج فحسر لثامه ثم قال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ... فرجزت ... هذا أوان الشد فاشتدي زيم
هذا أوان الشد فاشتدي زيم ... قد لفها الليل بسواق حطم ... ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم ... قد لفها الليل بعصلبي ... مهاجر ليس بأعرابي
إني والله يا أهل العراق لا أغمز ... ولا ... والله إني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله
وأجزيه بمثله إن الله ضرب مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت
بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وإنكم أولئك وأشباه أولئك ...
واستقيموا ولا تميلوا ... والله لأذيقنكم الهوان حتى تذروا ...
العمامة حتى تزلوا ... ضرب غرائب الإبل حتى ...
إنه والله ما يقعقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ... عن ذكاء وجريت
إلى الغاية ... إن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانته ... عيدانها
فوجدني أمرها ... وأصلبها مكسرا فوجهني إليكم ...
... في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي ... فإذا ...
... ألا ...

الوجه الأول من جزء الخزانة الملكية



الوجه الأخير من جزء الخزانة الملكية



الوجه الأول من نسخة الخزانة العامة (الأصل)



الوجه الأخير من نسخة الخزانة العامة